البحث الثالث

النسيج الاجتماعي للصابئة المندائيين

سبق أن ذكرنا في الفصل الأول - البحث الأول؛ أن الصابئة المندائيين يتكونون من سبع عشرة عائلة وعددٍ محدودٍ من العوائل الصغيرة، وهم لا يسمونها عشائر، وهذه العوائل كلها تدين بديانة الصابئة المندائيين وليس فيها مِلل ولا طوائف... يتزوج بعضهم من بعض ويحب بعضهم بعضًا، كتابهم واحد وطقوسهم وشعائرهم الدينية واحدة، ورجال دينهم للجميع دون استثناء تجمعهم في الوطن الأم نفس المؤسسات وفي بلدان المهجر نفس المؤسسات وفي بلدان المهجر نفس الجمعيات.

والصابئة المندائيون يختارون مجالسهم وقياداتهم بالانتخاب الحر المباشر دون أي تمييز بينهم، وهم يحترمون وجهاءهم ومثقفيهم غاية الاحترام، لا فرق عندهم بين الرجل والمرأة في الانتخاب والتصويت وحتى في الميراث، روح المساعدة متوفرة وخاصة للعوائل المتعففة، وهناك وشائج قربى بينهم بسبب عددهم المحدود، وبسبب عدم انفتاحهم على غيرهم من الأقوام أو الأديان، فهو دين ليس تبشيريًا ولا يسمحون بدخول الآخرين لدينهم، وعندهم أسبابهم العائلية والدينية، يحترمون رجال دينهم ويطيعونهم بما يرضي الله وتعاليمه.

لا يتزوجون ما حرَّمه الله ولا يأكلون ما حرم الله ولا يسفكون قطرة دم واحدة على عمد، لأن القتل والدم من أحرم المحرمات... أعيادهم واحدة تبدأ في نفس اليوم وتنتهي في نفس اليوم، لا يختلفون عليها أبدًا، وفي الأعياد يزور بعضهم بعض، ويأكلون في بيوت الآخرين وكأنها بيوتهم.

هناك عوائل كبيرة العدد مثل الخميسية والزهرية والمندوية والكحيلية والمهناوية والصابورية ، وغيرها... وعوائل محدودة العدد بالمقارنة مثل

الدهيسية والكيلانية والعثمانية والسبتاوية والبنكانية ، وغيرها... وعوائل متوسطة العدد مثل السيفية والمندوية ، وغيرها... وهذه العوائل كأنها عائلة واحدة لا فرق بين أحدهم والآخر في كل شيء، ولا تتعالى عائلة على أخرى لأي سبب فهم متساوون كأسنان المشط، ولم يحصل في يوم من الأيام أن حصلت مشاكل بين عائلة وأخرى رغم حصول مشاكل بين أشخاص من عوائل مختلفة.

وليس من حق أي صابئي مندائي أن يحتمي بعائلته إن كان على خطأ، فأول من يحاسبه عائلته، وليس من حق أي عائلة أن تستحوذ على المناصب القيادية في مؤسساتهم بسبب كثرة عددها أو غناء رجالها أو كثرة مثقفيها، بل هناك مبدأ المساواة والعدالة والاتفاق على كل شيء ونادرًا ما تجدهم يختلفون.

العائلة المندائية تربي أولادها وبناتها على الصدق والأمانة والقيم الحميدة وحب الآخرين واحترام كل الأديان السماوية والإيمان بكل الأنبياء والمرسلين والكتب السماوية المقدسة ويؤمنون بالحساب والآخرة، والعمل الصالح عكازتهم يوم الحساب أعمالهم التي عليها يتوكأون.

ويؤمنون بوجود حياة ثانية بعد الممات طالما أن حسنات الإنسان أكثر من سيئاته، ويعرفون أن الله غفور رحيم، يمجدون الله عز وجل غاية التمجيد ويقولون إنه منزه وأنه ملك النور السامي.

أما عن الخلافات التي تحصل بين الأفراد فهناك لجان اجتماعية في مجلس الشؤون العام في بغداد والمحافظات، كذلك هناك لجنة اجتماعية في كل جمعية مندائية في بلدان المهجر يقتصر عملها على حل المشاكل بين الأفراد وعلى الفعاليات الاجتماعية، كذلك هناك في بغداد المحكمة الشرعية المندائية إحدى تشكيلات مجلس الشؤون العام الخاص بعملية الزواج والطلاق وهي محكمة معترف بها من قبل وزارة العدل والدول العراقية، قراراتها عادلة والكل يحترم قراراتها لأنها تصدر بالحق. ورغم أن الكتاب المقدس للصابئة المندائيين لا يقر

الطلاق أبدًا، إذ يوصي بالزواج وأن يحب الزوج والزوجة بعضهم بعضًا، وألا يفترقوا حتى تنتهي أعمارهم، ولكن لأن أكثر رجال الدين متزوج من أكثر من واحدة فحذى الناس حذوهم.

ولذلك تجد عندهم تعدد الزوجات والطلاقات (الفراق)، وخاصة حاليًا في دول المهجر ما أسهل الطلاق وما أيسره، والنسيج الاجتماعي عندما كان الجميع في الوطن الأم متماسكين، ولكن بعد هذه الهجرة الواسعة وغير المنظمة، وتفكك العائلة الصغيرة من أكثر من بلد وانتشارهم في شتات العالم وربما الرجل المندائي لا يجد مندائية للزواج منها والعكس صحيح حصل بعض التهتك في النسيج الاجتماعي في السُدة وفي اللُحمة وهنا دق ناقوس الخطر.

فأنشأوا الجمعيات في كل المدن في بلدان المهجر يلم هذه اللحمة وللمحافظة على العائلة المندائية وتمسكها بالقيم والعادات والتقاليد، والتمسك بالتعاليم الدينية أن الناحية الثقافية عند الصابئة المندائيين تلعب دورًا كبيرًا في بناء ومتانة النسيج الاجتماعي ، لأن الغالبية العظمى منهم دخلوا المدارس والمعاهد والكليات وعدد كبير منهم أساتذة ومدرسون ومعلمون وأطباء ومهندسون، وهم يتبارون فيما بينهم للحصول على الشهادات العالية والوظائف المرموقة.

تتفاخر العوائل بعدد مثقفيها ويكاد يكون الجميع متعلمون ويجيدون القراءة والكتابة، ونادرًا ما تجد أُميًا بينهم، يحبون الشعر والأدب ويرددون الأشعار والقصائد المشهورة في مجالسهم، ويحبون الشعراء الوطنيين أمثال الجواهري والرصافي ومحسن الكاظمي ومظفر النواب وعريان السيد خلف وغيرهم.

معظمهم يمارسون مهنة الصياغة التي برعوا وتفننوا بها أب عن جد بالوراثة، وهذه المهنة حسنت كثيرًا المستوى المعاشي لهم، فالذهب معدن نفيس غالي الثمن، وهم يقولون من يشتغل بالذهب يجمع ذهب ومن يشتغل بالحديد يجمع حديد وهكذا...

ومن ممارسة مهنة الصياغة أعداد كثيرة منهم أصبحوا من الأغنياء الذين يملكون القصور والمزارع والحياة الراقية والخير الوفير، وكثير من أغنيائهم يساعدون العوائل الضعيفة المتعففة ويتبرعون لهم ويساعدونهم على المعيشة، مما يقوي أواصر وروابط النسيج الاجتماعي.

بعد الهجرة وتوزع الصابئة المندائيين على شتات الأرض وتفكك الكثير من العوائل المندائية في أكثر من دولة، فالأب والأم في دولة والأولاد في أكثر من دولة وصعوبة لم الشمل أعطى إفرازات كثيرة تضر بالنسيج الاجتماعي، فالأولاد مضطرين من الزواج من غير المندائيات، والمندائيات مضطرات للزواج من غير المندائيين بحكم المغريات أو الحصول على الإقامة والجنسية أو لتحسين الحالة المعاشية، أو بسبب جمال بنات البلدان الأوروبية ورشاقتهن وثقافتهن. ولسرعة تعلمه لغة ذلك البلد الذي يعيش به ولأسباب عديدة، فهذا يعني خروج الأولاد والبنات من الديانة المندائية، وبالتالي نقص العدد وحدوث تهتك بالنسيج الاجتماعي، ولو نظرنا للمستقبل المنظور، ولو تصورنا بحيرة ماء عذب كبيرة وزعت إلى عدة بحيرات صغيرة وحرمت من تغذيتها بالماء الجاري، وعوامل التبخر مستمرة عليها من قلة الزواجات والولادات لكونها مكلفة أو غير متوفرة وكثرة الزواج من الغرباء والخروج من الدين المندائي، وكون الدين المندائي مغلق.

كل هذه العوامل مجتمعة ستؤدي إلى جفاف بعض هذه البحيرات الصغيرة مع الزمن واندثارها، وهذا ما يخافون منه ويحسبون له ألف حساب، أضف إلى ذلك تعدد اللغات للعائلة الصغيرة الواحدة، فالأب والأم يتكلمون السويدية، والأولاد قسم منهم يتكلم الألمانية والقسم الآخر يتكلم الانجليزية.

ومع مرور الزمن سيتم نسيان اللغة العربية، وهم لا يتكلمون اللغة المندائية لأنهم يجهلونها... إذن كيف التفاهم فيما بينهم إذا التقوا أو إذا اتصل بالهاتف أو الحاسوب أحدهم بالآخر، هذه مشكلة المشاكل، ولهذا أنشأوا الجمعيات في بلدان المهجر لإعادة تجمعهم وترتيب البيت المندائي من جديد، وهناك الكثير من

المتطوعين لرأب الصدع الحاصل ولحياكة النسيج الذي بدأ يتهتك، ويسألون الله أن يكون في عونهم، وهذا الأمر يتطلب إمكانات من المال والرجال وربما إمكانات دولة وليس إمكانات جمعيات إمكاناتها المادية محدودة، ومع هذا تحاول بعض الجمعيات بحث الجهود الحثيثة لإنشاء المدارس التعليمية لتعليم اللغة العربية والمندائية.

أما تعليم اللغة العربية فهو الأمر الميسور والأسهل؛ لتوفر المعلمين والمناهج، والأهم من ذلك مازال معظم الأولاد والبنات يجيدون تكلم هذه اللغة، ولأن المحادثة في البيت بها والتفاهم بين جميع المندائيين أو قل العراقيين والعرب كافة بها.

أما اللغة المندائية ولو حاول بعض المتخصصين إعداد المناهج وطبعها وتوزيعها ولكنها لغة تداول محدودة وليست لغة محادثة في البيت المندائي، تحاول بعض المدارس المندائية التي أنشأت حديثًا تعليم هذه اللغة للأجيال الحالية وتبذل جهود هنا وهناك.

ولكن تبقى المشكلة قائمة؛ فالتعليم أشبه بخزان ماء يمتلئ وبعد حين يفرغ بسبب عدم استمرارية التعليم وبسبب عدم تداول هذه اللغة في البيت أو العمل أو الشارع، إذن اللغة العربية ولغة الدولة هي الغالبة، ولغة الدولة مثل السويدية مثلاً تتفاهم بها داخل السويد ولكنها مع حدود المطار لا تستطيع الاستفادة منها.

وهناك أصوات تشجع على تعليم اللغة الانجليزية لكونها لغة عالمية حية والمدارس في هذه البلدان؛ أقصد الأوروبية تدرس اللغة الانجليزية في مدارسها ولكن تبقى اللغة العربية هي الأحسن والأسهل والأفضل لكونها لغتنا، تربينا عليها ونعرف مفرداتها، ونسمعها يوميًا، بل في كل ساعة وكل دقيقة في البيت وفي أجهزة التلفاز، فلا يكاد بيت عراقي أو عربي يخلو من جهاز الستالايت الذي ينقل لك كافة الفضائيات العربية وما أكثرها وما أجملها وما أروعها.

إذن للمحافظة على النسيج الاجتماعي للصابئة المندائيين ؛ لابد من المحافظة على اللغة العربية وعدم نسيانها من قبل الشباب والأطفال والأجيال القادمة ، والاستفادة من كل الإمكانات المتاحة الحالية لكون الأهل مازالوا جميعًا يتكلمون بلغة عربية سليمة ، ولتوفر المناهج ولوجود المحطات الفضائية الكثيرة والمتنوعة ، والاستعانة حتى بالكتاب المقدس الكنزا ربا المترجم إلى اللغة العربية المكتوب بلغة عربية سليمة وراقية ، وهكذا نحافظ على لبنة مهمة من لبنات المحافظة على النسيج الاجتماعي للعائلة وبالتالي للطائفة وللمجتمع المندائي ، أضف لذلك المحافظة على العائلة من التفكك والضياع والحد من ظاهرة الطلاقات وتشجيع الشباب والشابات على الزواج من بعضهم.

ويعتبر هذا حاليًا من واجبات الجمعيات المندائية التي تقيم حلقات دراسية ونوادي ترفيهية لغرض التعارف والتقارب والمحافظة على العادات والتقاليد والأعراف والقيم الأصيلة التي رضعناها والتي يحبها أهلنا ويتفاخروا بها ، وخاصة قيم الشرف والأخلاق السامية واحترام الأبوين والأخوة الكبار والمحافظة على الأواصر الاجتماعية والدينية وعلاقات القرابة ، فالعرب كما تعلمنا أحساب وأنساب ومن الله العون والتوفيق.